الفصل الرابع:
صلح الحديبية

وفي شهر ذي القعدة أحد الأشهر الحرم من السنة السادسة الهجرية جمع الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين وتوجه نحو مكة لغرض الحج - ولكن قريشًا أساءت فهم قصده فظنت أنه جاء لمحاربتها. وأراد المسلمون أيضاً الاندفاع لقتالها.. إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم أبى بشدة فقد كانت في مخيلته فكرة السلم لا غير. وبركت به ناقته القصواء عند المكان المعروف بالحديبية وأبت إلا تواصل السير كإشارة على أن أوان فتح مكة لم يحن بعد.. فلم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم رجل حرب، إلا إذا ألجأته الضرورة القصوى إلى ذلك، وبإذن من الله عز وجل دفاعاً عن دعوته إلى دين الله وحمايتها من بطش الجبابرة والطغاة أو كيد الأفاقين والمنافقين المتربصين لها... ولكنه صلى الله عليه وسلم على أية حال، وفي كل الأحوال لا يقدم على حرب مهما كانت الظروف... ومهما ضغط عليه أصحابه المقربون وتابعوه بحججهم التي تبدو مقبولة بذلك إلا إذا أذن له الله عز وجل بهذه الحرب آمراً إياه بما يتبعه..

قال ابن إسحاق:

(قال الزهري: ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا له: ائت محمدًا فصالحه ولا يكن في صلحه، إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا

تحدث العرب أن دخلها علينا عنوة أبداً فآتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلاً قال: " لقد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل " فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم، فأطال الكلام، وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح. فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب ☺) فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه فإني أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ألست برسول الله؟ قال: بلى قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟.

قال:♂**أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني═.**

قال: فكان عمر بن الخطاب ☺ يقول: (مازلت أتصدق وأصوم واصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أن يكون خيراً) 359 / صحيح السيرة / صحابة / 1518.

وقال: (ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال: اكتب قال تعالى قال فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اكتب باسمك اللهم فكتبها ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمر. قال: فقال سهيل بن عمرو: لو شهدت إنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك، واسم أبيك، قال

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، ويأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يرده عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة وقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتوثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب والسيوف في القرب لا تدخلها بغيرها ".

وقال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مضطرباً في الحل، وكان يصلي في الحرم فلما فرغ من الصلح قام إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق رأسه... فلما رأى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نحر وحلق، تواثبوا ينحرون ويحلقون " (361 / صحيح السيرة / صاحبة / 1522).

ولاشك في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اضطرب بعض الشيء لاضطراب أصحابه الشديد الذين خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولم يدركوا آنذاك أنه إذا أتى أمر الله فإنه لا يجوز استعجاله لأنه لا يحدث، إلا في أوانه، حتى إذا حددت الرؤيا الصادقة مكانه، وإن كان عذرهم في ذلك شدة حبهم لله ورسوله وإخلاصهم لدعوته في إعلاء

كلمة الحق، وإزهاق الباطل، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون.. خاصة لما رأى سهيل ابن عمرو ابنه أبا جندل جاء ليشهر إسلامه بعد توقيع الصلح، فقام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتلابيبه ثم قال:

" يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " صدقت، فأخذ سهيل ينتر بتلبيب أبي جندل ويجره ليرده إلى قريش وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين يفتونني في ديني؟ فزاد ذلك صحابة الرسول وتابعيه إلى ما بهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :♂**يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، وإنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم**".

موقف صعب ورهيب.. أليس بشراً يتبع ما يوحى إليه من العلي القدير عز وجل.. ولا يملك من الأمر آنئذ إلا الاتجاه بالصلاة والدعاء إلى مرسله وخالقه العظيم تبارك وتعالى ليطمئن قلبه ويثبته... ويرشده إلى ماذا يفعل... وإلى الصراط القويم الذي يريده جل وعلا... وكم من أدعية وصلوات توجه بها الأنبياء والرسل والصالحون... إلى الله عز وجل فغيرت صفحات التاريخ.

قام صلوات الله وسلامه عليه من صلاته فنحر وحلق وتواثب على إثر ذلك الصحابة والتابعون ينحرون ويحلقون.. ثم انصرف صلوات الله عليه ومن معه للعودة إلى المدينة.

إذن لقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من البشرى ما يطمئن قلبه ويثبت فؤاده ويسر روحه ويتوجب عليه فعله.

يقول ابن إسحاق: قال الزهري في حديثه: ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجهه ذلك قافلاً، حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح:

قال تعالى:{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾} [الفتح: ١ - ٤].

ثم كانت القصة فيه، وفي أصحابه حتى انتهى إلى ذكر البيعة فقال جل ثناؤه:

قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } [الفتح: ١٠].

ثم ذكر من تخلف من الأعراب، ثم قال حين استنفرهم للخروج معه فأبطؤوا عليه:

{ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا } [الفتح: ١١].

ثم القصة عن خبرهم حتى انتهى إلى قوله تعالى:

{ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ

فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾} [الفتح: ١٥].

ثم القصة عن خبرهم وما عرض عليهم من جهاد القوم أولى البأس الشديد (361 / صحيح السيرة / صحابة /1525).

وقال: ثم قال الله تعالى:{لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾} [الفتح: ١٨ - ٢١].

ثم ذكر محبسه وكفه إياه عن القتال بعد الظفر منه بهم، يعني النفر الذي أصاب منهم وكفهم عنه، ثم قال تعالى:{وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} [الفتح: ٢٤].

ثم قال تعالى:{هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ} [الفتح: ٢٥].

قال ابن هشام: المعكوف: المحبوس (362 / صحيح السيرة / صحابة / 1528، 1529).

وقال تعالى:{وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الفتح: ٢٥]. والمعرة: الغرم أي: أن تصيبوا منهم (معرة) بغير علم فتخرجوا ديته، فأما إثم فلم يخشه عليهم.

وقال: ثم قال تعالى:{إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ

ٱلْجَٰهِلِيَّةِ} [الفتح: ٢٦]، يعني سهيل بن عمرو حين حمى أن يكتب قال تعالى، وأن محمدًا رسول الله، ثم قال تعالى:{فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا} [الفتح: ٢٦]. أي التوحيد بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

ثم قال تعالى:{لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ} [الفتح: ٢٧].

أي: لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم التي رأى أنه سيدخل مكة أمناً لا يخاف ويقول:{مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ٢٧]. أي صلح الحديبية.

يقول الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه فتحاً إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف " (263 / صحيح السيرة / صحابة).

وهكذا أطمأنت قلوب المؤمنين.. وازداد يقينهم بأن ما يراه رسول الله صدق لا مراء فيه وأن ما يتبعه من رؤى صادقة ووحي..

يفوق بكثير في حكمته ما لا تستطيع عقولهم وإدراكاتهم جميعاً أن تحيط به إلا بعد حين.. حين يتبين له حكمته ونفعه.. وأن ما أتى من أمر لا يقع إلا في أوان وحين يريده هو عز وجل ولحكمة بالغة يعلمها تبارك وتعالى.. وقد تقع أحداث قد تبدو غير مقبولة لدى المسلمين ولكن بعد حين.. قد نجد وراء هذه الأحداث.. وبسببها فتحاً كبيراً.. فتحاً للعقول.. سواء للمسلمين أو لغيرهم لتزداد قناعتهم وإيمانهم بإدراكهم لهذا الدين العظيم القيم فتح لا يقل عن فتح الأماكن المقدسة.. بل هو الطريق القويم، الممهد بالاطمئنان والثقة والإيمان لفتح الأماكن المقدسة.. فتح أمام الأمة الإسلامية بعصورها وأجيالها لتستخلص منه العبر والمواعظ والتي نرى من أهمها:

- الاعتماد والتوكل على الله عز وجل بكل ما يحمله ذلك من معنى وتفويض المسلم له جل وعلا تفويضاً كاملاً في كل أمر من أموره.

- الطاعة الكاملة لله عز وجل وبما أمر به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم دون جدال أو مواربة.

- اجتهاد المسلم في الأسباب الذي كلفه الله عز وجل به بكل ما في وسعه.

- عدم استعجال أمر الله فإن ما أتى من أمر الله لا يقع إلا حين يريده هو جل وعلا أن يقع وأين يقع لحكمة بالغة لا يعلمها إلا هو جل ثناؤه.

- الرضا بقضاء الله وقدره وللتسليم به تسليما مطلقاً.

وبعد عام من صلح الحديبية أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم

حوالي ألفين من المسلمين الذين يريدون زيارة مكة بعد غيبة سبع سنوات عنها وتوجه إليها.. وعندما دخلوا جلت قريش عنها واعتصمت بالجبال حتى طاف الرسول صلى الله عليه وسلم بالكعبة.. وانتهت الزيارة التي تعرف بعمرة القضاء بإسلام ثلاثة من أهم رجالات مكة ألا وهم: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة.. ثم خرج المسلمون عائدين إلى المدينة.

* * *